المحاضرة السابعة: النقد النفسي

1-مقدمة:

يعد المنهج النفسي من أقدم المناهج، فجذوره تعود إلى أفلاطون وأرسطو مع فكرة التطهير(*)، التي تتعلق في المقام الأول بالمتلقين للأعمال المسرحية التراجيدية، وتتم كما يشرحها أرسطو "بأن يفزع المشاهد من رؤية الأفعال العنيفة والمأساوية فتأخذه الرحمة بالضحايا ويصيبه الحزن، وبهذا تتحقق المشاركة الوجدانية ويتخفف المتلقي من الرحمة (...) ويصاحب التطهير من الخوف والرحمة أثر سيكولوجي آخر لدى المشاهد للمسرحية المأساوية وهو اللذة"، فأرسطو يشير إلى أن هذا النوع من الإبداع المسرحي يمتلك القدرة على إثارة مشاعر مختلفة في نفس المتلقي، كالرحمة والخوف واللذة أيضا، هذه الأخيرة التي سيكون حتما مصدرها البناء الفني للمسرحية.

2- النشأة والتطور:

شهدت فكرة التطهير تطورا كبيرا بظهور علم النفس، حيث استفادت الدراسات الأدبية منه كثيرا في تفسير الأعمال الأدبية وتحليلها، لأن العنصر النفسي عنصر هام وبارز في العمل الأدبي، ويستمد أهميته من علاقة النفس بالأدب عموما، فكلا من علمي النفس والأدب يبحثان في خفايا وأسرار النفس الإنسانية، ومحاولة تفسير ما يحدث داخلها من انفعالات وردود أفعال على أي شكل من الأشكال.

والمنهج النفسي في الدراسات النقدية هو الذي يخضع النص الأدبي للبحوث النفسية، ويحاول تفسيره على ضوء النظريات النفسية للكشف عن غوامضه وأسراره. وقد ارتبط النقد النفسي في العصر الحديث بعالم التحليل النفسي سيجموند فرويد "الذي يرى في العمل

الأدبي موقعا أثريا ذا طبقات من الدلالات متراكم بعضها فوق بعض، ولابد من الحفر فيها للكشف عن غوامضه وأسراره"، وترتكز أبحاث فرويد على مفهوم اللاوعي، فيصبح الأدب وفق هذا المفهوم شكل من أشكال تعبير الإنسان عن رغباته المكبوتة في اللاوعي، وهو بالكتابة ينفس عن هذه الرغبات. ويخلص التحليل النفسي إلى أن الإبداع عبارة عن حالة قابلة للتحليل، بحيث يحتوي كل مضمون على عناصر خفية وأخرى ظاهرة، ومن شأن التحليل النفسي البحث في هذه العناصر.

وهكذا صار العمل الأدبي وفقا لمبادئ التحليل النفسي ومستوياته، عبارة عن وثيقة نفسية تسير في اتجاه واحد، حيث يستوي فيها العمل الفني الجيد مع الرديئ في دلالته على نفسية صاحبه، مما يؤدي إلى تغيير جوهر العمل الأدبي وقيمته الفنية، وهذا ما أثار ضجة كبيرة وانتقادات حادة حول هذا النوع من النقد.

3- مصادر النقد النفسي ومرجعياته:

يتضح من خلال العودة إلى الدراسات القديمة أن النقد الأدبي عموما لم يكن يخل من بعض الإشارات التي ترتبط بالجانب النفسي للأديب، والتي اتخذها مرجعا أساسيا ومنطلقا في قراءة النصوص. فإضافة إلى نظرية التطهير التي سبق ذكرها، نجد النقد العربي هو الآخر تضمن بعض الإرهاسات المتعلقة بالجوانب النفسية للعملية الإبداعية، حيث نجد ابن قتيبة يصف بعض الحالات النفسية التي قد يتعرض لها الأديب، ويكون لها تأثير واضح على عملية الإبداع فيقول: "وللشعر تارات يبعد فيها قريبه ويستصعب فيها ريَضه، وكذلك الكلام المنثور في الرسائل والمقامات والجوابات، فقد يتعذر على الكاتب الأديب وعلى البليغ الخطيب، ولا يعرف لذلك سبب إلا أن يكون من عارض يعترض على الغريزة من سوء غذاء

أو خاطر". يتضح من القول السابق أن ابن قتيبة يحصر العملية الإبداعية في الدوافع الشعورية للأديب كالطمع والشوق والغضب والطرب.

كما يربط ابن خلدون الإبداع بالعامل النفسي وعلاقته بالمدركات الخارجية، فيقول: "إن النفس وإن كانت في جبلتها واحدة بالنوع فهي تختلف في البشر بالقوة والضعف في الإدراكات، واختلافها إنما هو باختلاف ما يرد عليها من الإدراكات والملكات والألوان التي تكيفها من الخارج، فبهذه يتم وجودها وتخرج من القوة إلى الفعل صورتها (...) فالملكة الشعرية تنشأ بحفظ الشعر وملكة الكتابة بحفظ الأسجاع والترسل.( )"

وسيجد الباحث عن مثل هذه الإشارات مادة معتبرة في النقد القديم، لكنها ظلت مجرد تعليقات وملاحظات متناثرة، لم ترق إلى دراسات منهجية منسقة إلا بظهور أبحاث ودراسات الطبيب النمساوي فرويد في علم النفس الحديث.

تقوم تحليلات فرويد إلى جانب مفهوم اللاوعي على تفسير الأحلام، على اعتبار أن هذه الأخيرة هي تجسيد لفكرة اللاشعور لدى الإنسان، فالأحلام عبارة عن رغبات مكبوتة لم تجد لها متنفسا على أرض الواقع بسبب سلطة الرقيب (الوازع الديني أو الأخلاقي أو الاجتماعي وغيرها)، فحولت إلى منطقة العقل الباطن للإنسان، في محاولة لإشباع تلك الرغبات. والأمر نفسه يحدث مع عقل الفنان أو الأديب الذي يشبع رغباته خياليا عن طريق صور محرفة وصيغ تعبيرية تخفي طبيعتها الحقيقية حتى تتجاوز سلطة الرقيب، وذلك بتوظيف تقنيات الإزاحة والرمز والتكثيف( ).

لقد كان لأبحاث فرويد أثر كبير في الدراسات النقدية الأدبية، حيث أعيد النظر في كثير من الأعمال الأدبية لتفسيرها على ضوء معطيات التحليل النفسي الذي طورت نظرياته بشكل كبير يتماشى والإبداع الفني. فالذين أتوا بعد فرويد حاولوا التأكيد على خصوصية

العمل الأدبي واستقلاليته عن دائرة الأمراض النفسية، وإن المبدع ليس إنسانا عصابيا أو مريضا نفسيا. بل هو مبدع له ذات شاعرة تنبع من أعماق النفس الإنسانية، تنتج وتبدع وهي في كامل وعيها. ويعد ريتشاردز من أبرز من جددوا في النقد النفسي، بتجاوز دائرة المبدع إلى المتلقي وتحليل استجابته للعمل الإبداعي.

4- التلقي العربي للمنهج النفسي في النقد الحديث:

لم يكن النقاد العرب بمعزل عن هذا التأثر، فقد أدلوا بدلوهم في هذا المجال، وأفادوا منه، ونذكر على سبيل المثال المجهودات الهامة التي قدمها أصحاب الديوان في هذا المجال، فقد تطرقوا لبعض النماذج الشعرية التي تجلت فيها فردية وعبقرية أصحابها، مثل الدراسة التي قام بها العقاد حول ابن الرومي في كتابه "ابن الرومي، حياته وشعره"، وكذلك أبي نواس في كتابه "أبو نواس"، وقد سعى العقاد في هذين المؤلفين إلى تفسير عقدة النرجسية أو المبالغة في حب الذات عند ابن الرومي وأبي نواس، هذه النرجسية يقول عنها العقاد: "شذوذ دقيق يؤدي إلى ضروب شتى من الشذوذ في غرائز الجنس وبواعث الأخلاق، ويلتبس الأمر من أجل هذا بين النرجسية وتلك الضروب المختلفة من الشذوذات الجنسية وهي مخالفة لها في دخيلها مناقضة لبعضها في ميولها ونزعاتها(...) كما يحدث أحيانا من أبي نواس في غزله بالمذكر تارة وغزله بالمؤنث تارة اخرى وفي الجمع احيانا بين ما يزعمه عشقا لاكثر من فتاة واحدة وما يزعمه من عشق لاكثر من فتى واحد، ولا اصل للعشيقين في نهاية المطاف غير النرجسية في قرارها العميق.

يتضح من القول السابق أن العقاد يحاول تفسير شخصية أبي نواس انطلاقا من مقولات التحليل النفسي الفرويدي، فهو يرى أن أبا نواس مصاب بأنواع مختلفة من الشذوذ الجنسي وذلك راجع لحالة التفكك الأسري التي عاشها نتيجة وفاة والده وتزوج أمه من رجل

آخر، مما أدى به إلى انحراف مشاعره إضافة إلى الإدمان على شرب الخمر التي يرى فيها – حسب تفسير العقاد– معادلا موضوعيا لحالة البؤس والشقاء والحرمان التي كان يعيشها.

وقد تناول أيضا المازني شخصية بشار بن برد في كتابه "بشار بن برد"، مفسرا سبب ولع هذا الأخير بشعر الهجاء الذي يحتوي على الكثير من السب والشتم، وقد أرجع ذلك إلى عقدة النقص التي كان يعاني منها، والتي تعود أساسا إلى عاهة العمى التي ابتلي بها، ولم يجد متنفسا للتفريغ عن هذه المكبوتات وتعويض ذاك النقص إلا في ملكته الأدبية وسلاطة لسانه كي يشعر الآخرين بأنه قوي، وبالتالي يتجنب مشاعر الشفقة والعطف.

وتوالى إصدار المؤلفات العربية ذات التوجه النقدي النفسي، فنجد على سبيل المثال: "البلاغة وعلم النفس" لأمين الخولي، و"مع أبي العلاء في سجنه" لطه حسين ، و"من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده " لمحمد خلف الله. إضافة إلى الإسهامات الهامة للدكتور مصطفى سويف.

5–خاتمة:

وصفوة القول، يبقى النقد النفسي سلاح ذو حدين يجب استخدامه بحذر ووعي كبيرين حتى لا يتحول النقد الأدبي إلى عيادة نفسية تضم المبدعين كافة من أدباء وشعراء وفنانين بوصفهم مرضى نفسيين بحاجة إلى العلاج، ويبقى طبعا الجانب الإيجابي له يتمثل في كونه يسهم مع بقية المناهج النقدية في تحليل وتفسير وفهم الأعمال الأدبية والفنية عموما.

6–مراجع مفيدة للتوسع في المحاضرة:

ـعز الدين إسماعيل: التفسير النفسي للأدب، القاهرة، دار المعارف، 1963.

-عبد الله خضر حمد، مناهج النقد الأدبي السياقية والنسقية، دار القلم للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت، لبنان.

- عماد سليم الخطيب، في الأدب الحديث ونقده، دار المسيرة للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2009.